المحاضرة الثالثة في قضايا النص الشعري القديم

- النزعة القبلية في الشعر الجاهلي

(القبائل العربية ذات الأصل القحطاني)

1- مفهوم الجاهلية :

إن كلمة الجاهلية التي أطلقت على هذا العصر ليست مشتقة من الجهل الذي هو ضد العلم ونقيضه،لأن العرب:"كانوا على قسط وافر من العلوم والمعارف التي كانت معروفة فيعصرهم كالفلك والطب واقتفاء الأثر" [1] ،إنما هي مشتقة من الجهل الذي هو ضد الحلم أي السفه والغضب والنزق والإسراف في القتل ، واستباحة الفواحش،واستمرار العداوة وقطيعة الأرحام وغيرها مما نهى عنه الإسلام ، يقول محمد هاشم عطية:"ليس الغرض من الجاهلية النسبة إلى الجهل المناقضة للعلم والمعرفة" [2].

وقد حدد ابن منظور معناها في معجمه لسان العرب يقول:" هي الحال التي كانت عليها العرب قبل الإسلام من الجهل بالله سبحانه ورسوله وشرائع الدين و المفاخرة بالأنساب والكبر والتجبر وغير ذلك "[3].

2- النزعة القبلية في الشعر الجاهلي :

أ/ القبائل العربية ذات الأصل القحطاني :

إذا حاولنا تفصيل موضوع الشعر في النص العربي القديم سوف نجده في العصر الجاهلي يعتبر هو عصر الشعر والتأسيس للقصيدة ،حيث تأسست وتطورت عبر أزمان طويلة مجهولة وانتهت كاملة مستوية ذات تقاليد ومراحل لازمت الشعر عصورا، وقد لاءم الشعر طبيعة الجاهليين وبداوتهم،فاختصر كل ثقافتهم حيث تضمن خطابهم الشعري دفئا إنسانيا وعبر عن لوعته وحنينه لأمجاد بائدة ، لكم قيم الفن رسخت فيهم منظومة قيم الصحراء والطبيعة القاسية [4].

وأول ظاهرة حاكاها الشعر الجاهلي بأشعاره النزعة القبلية في الشعر الجاهلي، خاصة وأن القبيلة هي مصدر القوة للشاعر فإن شعراء العرب ظلوا قبائليين حتى في عصور متأخرة عن سيادة القبيلة، وحتى في عصور ما بعد ظهور الإسلام الذي وجد القبائل على أساس الدين حيث ظلت العصبية القبلية منتشرة بين العرب .

وكانت القبائل العربية في عصور ما قبل الإسلام تقيم الأفراح والولائم ،إذ نبغ فيها شاعر ، فقد كان الشاعر المحامي والمدافع عن شرف القبيلة التي ينتسب إليها في أفراحها وأتراحها ظالمة أو مظلومة .

وكل مجتمع له نظامه الذي ينسجم مع ظروفه وأوضاعه الخاصة ،والمجتمع البدوي عماده القبيلة ،التي يحتمي بها الأعرابي للدفاع عن ماله ونفسه وكل ما في القبيلة تأخذ بالحق .

ولكل قبيلة سيد هو المرجع المسئول عن أتباعه في السلم والحرب كما يحق له أن يجمع شمل عدة قبائل ويترأسها وينبغي أن يتحلى بخصال حميدة وهذا ما أقر به

الجاحظ ،حين قال : " كان أهل الجاهلية لا يسودون إلا من تكاملت فيه ست خصال: السخاء والنجدة والصبر والحلم والتواضع والبيان "[5] وتتم الرئاسة بانتخاب حر بين ا لأفراد ولا بد للرئيس المنتخب من عصبية داخل العشيرة وقرابة تشد أزره وتعينه على تنفيذ مطالبه .

يُقسِّم علماءُ الأ َنْساب القبائلَ العربية في الشمال إلى قسمين كبيرَيْن: قِسْم عدناني مُضَري، وهم عرَبُ الشمال الذين انحدَروا من عدنان ونِزار ومُضَر، وقسم قَحْطاني ينحدر مِن قحطان من الجنوب، وهذا القسم الجنوبيُّ في الشمال قد هاجرَ من اليمَن وحضر موت، وعاش بين العرب الشماليّين.

وقد اختلفَ النسّابون في أصل بعض القبائل العربيّة؛ مثل: خُزَاعة وقُضاعة وخثعم، على أنّ الرأي الصحيح أنّ هذه القبائل قحطانيّة؛ فمِن الثّابت أن القحطانيّين هاجَروا إلى الشمال في ظروفٍ مُختلفة، وأنّ هذه الهجرات قد بدأت منذ أزمانٍ مُبكِرة ، فقد كان المعينيُّون يَصِفون حاميات في طُرق قوافلهم التِّجارية، وبعد ضعف الدّولة الحميريّة هاجرَ كثيرٌ من الجنوبيّين إلى الشمال،ومن ذلك أنّنا نجد للقبيلة الواحدة فروعًا وشُعبًا مختلفة في الجزيرة العربيّة؛ فكِنْدة هاجرَتْ إلى الشمال، وأسّست لها مَمْلكة في شمالي نجْد - كما مرّ بنا - ثم عادَتْ بقاياها مرّة ثانية إلى الجنوب؛ لِتَلْحق بِمَن بَقي منها في الجنوب بعد انتهاء مَمْلكتها في بداية القرن السّادس الهجريّ، وكانت عشائِرُ من إياد لا تزال تنْزل شماليّ نجْران، بينما هاجرَتْ عشائرُ أخرى إلى منطقة الفرات شمالَ الجزيرة.

أمّا الأ َزْد فقد توزّعَت عشائِرُها بين شماليّ اليمن وعمان والمدينة؛ حيثُ الأوسُ والخزرج، وشمالي الجزيرة في الشام؛حيث الغسَاسنة، كما هاجرت تنوخ إلى البحرين، واستقرّتْ في جنوبي العراق، حيث أسّست عشائرها دولةَ المَناذرة اللخميّين في الحيرة - كما مرّ بنا - ونزحَتْ قبيلة طيي إلى الشمال، واستقرّت في جبلَيْ أجأ وسلمى ، كما هاجرَتْ قبائل هَمَذان من حضرموت إلى الجوف اليمنيّ بين مأرب ونجْران.

وهاجرَتْ قبائلُ أخرى إلى شماليّ الحجاز، وانتشرَتْ في منطقة الشّام، وأهَمُّها قُضاعة وجُهَينة، وبلى وبهراء، وجذام وكلب، وعاملة في مساكن ثمود وحدود فِلَسطين، كما نزلَتْ عذرة في تيْماء ووادي القرى،ومِمّن هاجرَ من الجنوب خُزاعة التي كانت بمكة، وبجيلة التي كانت تنْزل بالطّائف.

التهميش :

1- عمر فروخ : تاريخ الأدب العربي ، دار العلم للملايين ، بيروت ، لبنان ،ط4 ،1981،ص :73

2- محمد هاشم عطية :الأدب العربي وتاريخه في العصر الجاهلي ، مطبعة مصطفى الابي الحلبي مصر ،1936/ص :6

3- ابن منظور لسان العرب :ج1 ، دار صادر بيرت، لبنان ،ط3 ، مادة جهل.

4- عباس بن يحي : محاضرة السنة الثانية أدب عباسي، قسم اللغة العربية وآدابها، 2003-2004 ، ص: 1

5- البغدادي : خزانة الأدب ولب لباب العرب ، دار الكاتب العربي ، ج3 ، ص :90